المذاهب الفلسفيّة

لحضرة الكاتب الفيلسوف صهيون افندي بقي

١

مرّ على القارىء اللبيب ذكر اشهر المذاهب الفلسفيّة التي اعتمد اصحابها على الحس في ابحاثهم وها انا مثبت الآن لمحة عن المذاهب التي لم تتخذ غير العقل دليلاً في علومها واول تلك المذاهب شهرة وابعدها عهدًا الروحيّة وهي مذهب لجماعة من الفلاسفة يقولون ان النفس جوهر بسيط مجرد عن المادة يعنون بذلك انها موجود متجدّل بحالة غير الحالة التي لسائر الاعضاء

على ان كلة النفس قد تجاوزت حد معناها الوضعي عند فلاسفة الاعصر القديمة والمتوسطة حيث اطلقوها جزافًا على كل ما يتألف منهُ الجسم الآليّ وجعلوها مصدر الحركة والحياة فيهِ. اعتبر ذلك بما عرّفها بهِ ارسطو حيث قال ان النفس هي المظهر الاول لجسم الآليّ ايّان ازدهاء الحياة فيهِ يعني انها القوة التي بها تنمو وتنتشر الحياة في الجسم المختص لها. وعلى هذا المبدإ جعلوا النفس تارة ثلاثة اقسام وطورًا خمسة وعينوا لكل وقسم منها مركزًا مستقلاً وعملاً خاصًّا. من ذلك ان افلاطون جعلها ثلاثة اقسام القسم الاول النفس المدركة ومركزها الدماغ وهي وحدها الخالدة والنفس الثانية الغضبيّة ومحلها القلب ومنها تصدر الحركة والنشاط والنفس الثالثة الشهوانيّة ومركزها القسم الاسفل من الجسم وعنها تصدر الشهوات والاميال وهي تموت بموت الاعضاء. وهكذا ايضًا قسم ارسطو النفس الى خمسة اقسام النفس المغذية وعملها التغذية والتناسل وهي في الحيوان والنبات سواء والحاسة وعنها يصدر الشعور والحس والغضبيّة وهي مصدر الحركة والعمل والشهوانيّة وعنها تصدر الرغبة والارادة والعاقلة. اما الفلسفة المدرسيّة فجعلت النفس ثلاثة اقسام الاولى النباتيّة والثانية الحاسة او الحيوانية والثالثة العاقلة او الانسانيّة

ومن امعن النظر في تاريخ الفلسفة رأى قضايا كثيرة تفرّعت عن اصول الروحيّة في الزمن القديم منها هل ان المادة صدرت عن النفس او ان المادة والنفس مستقلتان منذ البدء لا تمتزج الواحدة منهما بالاخرى وقد قال بالقضيّة الثانية واثبتها بما استطاع من الادلة كل من افلاطون وارسطو الاّ ان هذا القول وان كان ظاهرهُ من جهة روحيًّا فهو لا يخلو من الثنوية من الجهة الاخرى. واما الذين يقولون بان المادة صدرت عن النفس فينقسمون في

ذلك الى فئتين فئة منهما تقول ان الروح السامي اي الخالق العظيم اوجد المادة من العدم فانفصلت عن الروح واستقلت بخصائصها المميزة لها ويقول الفريق الثاني ان المادة ليست بموجود حقيقي ولا بذات جوهرية . وانما هي مظهر بسيط من مظاهر النفس تظهر خصائصها تبعاً لاحوال الفضاء

ويجدر بنا ايضاحاً لمذهب الروحيين ان نأتي على تبيان الفرق ما بينهم وبين الماديين بذكر شيء من ادلة الفريقين لان المذهبين كما لا يخفى على طارق نقيض فالروحيون يقولون ان في الانسان شيئين نفساً وجسداً وان النفس مميزة عن الجسد بماهيتها وغايتها وسائر خصائصها والماديون لا يعرفون في الانسان شيئاً غير المادة

يقول الماديون ان الدماغ هو العقل وان على حالتهِ تتوقف حالة الادراك والعواطف وسائر شؤونا العقلية والادبية وان على اتساع الزاوية الوجهية يتوقف اتساع العقل وعلى صغر الرأس وكبرهِ يتوقف مضاء الذهن وخمولهُ وباختلال الدماغ يختل العقل . فينتقضهم الروحيون قائلين انك تجد العقول الثاقبة في الجباه الغائرة وتجد العقول الخامدة في الجباه البارزة وهكذا ايضاً تكون العقول الضعيفة في الرؤوس الكبيرة والعقول العظيمة في الرؤوس الصغيرة وقد يكون في الدماغ جرحٌ دامٍ وصاحبهُ ذو عقل راجح وقد يكون سليماً لا جرح فيهِ وصاحبهُ ذو جنون مطبق . ويقول الماديون ان للعمر والمزاج والجنس والاقليم والمعيشة تأثيراً في دماغ الانسان ويذكر الروحيون ذلك ويقولون ليس للسنين وتعاقبها تأثير في القوى العاقلة ولكن البحث والاختبار يزيدان العقل توقداً ونمواً ولو ان عن المزاج والمعيشة لتولد العواطف وتنشأ الآداب فما الذي حمل ارسطو على ان ينبذ الرذائل التي شبَّ عليها ويعتنق الفضائل ويقضي ما بقي من حياتهِ في اتباع سبلها الرويَّة وقد ذكر لنا رواة اخباره ان احد رجال اثينا عابهُ مرة بحضرة تلامذتهِ على سلوكهِ ايام صبوتهِ فاغاظ الطلبة من ذلك وارادوا تقريع الرجل لتطاولهِ فاعترضهم ارسطو وقال لهم قد كنت كما عابني الرجل سيئ السلوك قبيح السيرة لكن نفسي طرحت ذلك كلهُ وسلكت بي سبل الآداب . وان كان الجنس يؤثر في العواطف فما الذي حمل جان دارك على ركوب الاخطار واقتحام المهالك غير نفس فيها اعلى من الجسد واسمى

على انهُ ليس بين ادلة الروحيين دليل اقطع من قولهم بوحدة الذات في الانسان فانهم يقولون انهُ بدون الوحدة لا وجدان وبدون الوجدان لا فكر ولا قوة من القوى العقلية والادبية وبالجملة لا وجود للذات المعبَّر عنها بالأنا وليس الانسان بنظرهِ الخاص الاَّ على قدر ما يشعر ويدرك ويريد ولا يستطيع ان يشعر ويدرك ويريد الاَّ بقدر وجود تلك الوحدة ما بين تلك القوات

المختلفة وهذه الوحدة ليست بحسّي لغير ذي كيان حقيقي وانما هي اسم لموجود حقيقي وهي لا تقبل التجزء والانقسام بل انها تجمع وتؤلف في آن واحد ما بين الافكار المختلفة والمؤثرات المتناقضة . مثال ذلك انه اذا ارتبت في امر ما ادرك في الوقت نفسه اني بين حالتين متناقضتين هما النفي والاثبات وان الذي يرجح الواحد على الآخر هو انا وانا ذاتي الذي اشعر بكل ذلك ولي وجدان يدلني على وجود وحدة في تجمع كل اعمالي وافعالي وهي غير قابلة التجزء والانقسام. وهذه الحالة لا تنطبق اصلاً على احوال الجسد فان كل عضو من اعضائه يخالف العضو الآخر ويتجزأ و يتغير كغيره من الماديات

ثم انا نعرف ايضاً ان النفس فينا موجود واحد مع تعددت مظاهر قوانا العقلية ومهما توالت علينا الحوادث وتتابعت السنون وليس بالامكان ان ننكر وحدة الذات في الانسان قبل ان ننكر قوة الذكر فيه ولا ننكر وجود هذه القوة حتى ننفي عنهُ سائر قوى العقل كالفكر والتعقل والاختبار على ان اعضاء الجسم على غير ذلك لانها لا تستقر على حالة واحدة لا بشكلها ولا بذاتها فانها اذا مرّت عليها السنون تغيرت تماماً بسمنها وحجمها ودقائقها . وخلاصة القول ان مادة جسمنا تندثر وتتجدد مراراً كثيرة زمن الحياة اما نفسنا فتبقى على حالة واحدة كل زمن حياتنا على الارض

وقد اورد العلامة احمد بن مسكويه في كتابه " تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق " برهاناً حسناً نثبتهُ هنا بحرفهِ الواحد لفائدة قال : ان كل جسم لهُ صورة ما فانهُ ليس يقبل صورة اخرى من جنس صورتهِ الاولى الاَّ بعد مفارقتهِ الصورة الاول مفارقة تامة مثال ذلك ان الجسم اذا قبل صورة وشكلاً من الاشكال كالتثليث مثلاً فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير وغيرهما الأبعد ان يفارقهُ الشكل الاول وكذلك اذا قبل صورة نقش او كتابة او اي شيء كان من الصور فليس يقبل صورة اخرى من ذلك الجنس الاَّ بعد زوال الاولى وبطلانها البتة فان بقي فيهِ شيء من رسم الصورة الاولى لم يقبل الصورة الثانية على التمام بل تختلط بهِ الصورتان فلا تخلص لهُ احداهما على التمام مثال ذلك اذا قبل الشمع صورة نقش في الخاتم لم يقبل غيرهُ من النقوش الاَّ بعد ان يزول عنهُ رسم النقش الاول وكذلك الفضة اذا قبلت صورة الخاتم . وهذا حكم مستقيم مستمر في الاجسام ونحن نجد انفسنا تقبل صور الاشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مفارقة ولا معاقبة ولا زوال رسم بل يبقى الرسم الاول تاماً كاملاً وتقبل الرسم الثاني ايضاً تاماً كاملاً ثم لا تزال تقبل صورة بعد صورة ابداً دائماً من غير ان تضعف او تقصر في وقت من الاوقات

عن قبول ما يرد ويطرأ عليها من الصور بل تزداد بالصورة الاولى قوة على ما يرد عليها من الصورة الاخرى وهذه خاصة مضادة لخواص الاجسام ولهذه العلة يزداد الانسان فهماً كلما ارتاض وتخرّج في العلوم والآداب فليست النفس اذاً جسماً

هذا وان للمذهب الروحي مظهراً آخر ونوعاً جديداً يسمى بالكارتيسيانزم او الكارتيسيانية نسبةً الى ديكارت الفيلسوف الفرنسوي الذائع الصيت وقد كان لهُ المكان السامي والشأن الرفيع عند اهل القرن السابع عشر فلا بدع ان ذكرنا لمعة موجزة عن مبادئهِ فنقول

٣

يطلق اسم الكارتيسيانيزم على الانقلاب الفلسفي الذي حدث في اوربا في القرن السابع عشر اثر انتشار مبادىء ديكارت المشار اليهِ وتعاليمهِ الفلسفية . على انهُ من المحقق ان بين كل المذاهب التي قامت في الاعصر القديمة والحديثة لم يقم مذهب يضاهي الكارتيسيانية من حيث انها بددت كل فلسفة قبلها ولم تبقِ لها في اندية العلم اثراً يذكر ولا حامٍ حول غيرها ما حام حولها من نوابغ رجال العلم وذوي العقول الثاقبة وزد على ذلك انها لم تقتصر على الفلسفة بل تجاوزت إلى العلم فاحدثت انقلاباً مهماً وتغييراً كبيراً في كل اصولهِ وجميع فروعهِ وكل ذلك مسبب عن تعاليم ديكارت ومبادئهِ كما سبق نقلنا ولذلك نسب المذهب اليهِ وعرف باسمهِ

واول ما فعل ديكارت انهُ ناصب الفلسفة المدرسية حرباً عواناً حتى هدم اركانها وان كان رابلي وراموس وشارون من قبلهِ جرّدوا عليها اقلامهم الاّ انهم لم ينالوا الغاية التي نالها ديكارت

وقد بنى ديكارت مذهبهُ على ان لا يسترسل الانسان إلى امر ولا يجزم بصحة قضية حتى يبحث فيها العقل البحث المدقق ويمحصها التمحيص الكافي وان لا يعتد بالقضايا المبنية على الحدس ولا يعتمد على الكلام المنسوب إلى كبار العقول لمجرد كونهم من العلماء المدققين والفلاسفة المشهورين . وقد وضع في كتابهِ النظام la méthode القواعد الاربع الآتية الاول ان لا تسلم بصحة شيء ما لم تتضح لك صحتهُ جلياً . ثانياً ان يقسم كل امر يعرض لك إلى اجزاء صغيرة حتى يمكن حلهُ . ثالثاً ان تسير بافكارك في الامور على الترتيب مبتدئين بالامور البسيطة السهلة الادراك لكي ترتقي منها الى ما هو اعلى منها تدريجاً اي تبتدئ من البسائط حتى تصل الى المركبات . رابعاً ان تفحص الامور بالتدقيق والمراجعة حتى لا يفوتنا منها شيء

ثم جعل ديكارت الارتياب قاعدة بها يتصل الانسان الى الحقيقة ويأمن معها الوقوع في

الضلال الأ ان الارتياب على نوعين ارتياب مطلق وهو مبدأ اللاادرية وقد مر بك الكلام عنها وارتياب موقت وقد سموهُ بالارتياب النظامي وهو توقف الفكر قليلاً عن اصدار الحكم ريثما ينظر في القضيَّة ويحلل اصولها. وقد جعل ديكارت هٰذا النوع من الارتياب وجوبياً على الانسان في كل شيء وقبل كل شيء الاَّ فيما يتعلق بقضية وجود النفس وواجب الوجود. وجملة القول انهُ علم بوجوب جعل الارتياب مقدمة كل بحث او ذريعة لكشف الغوامض

ومدار اهم مباحث هٰذا المذهب على النفس وواجب الوجود اما النفس فقد قال ديكارت عنها انها موجود مستقل عن الجسد وليست بشيء مادي بل انها جوهر بسيط مجرد كقول جمّاع الروحيين وقال ايضاً انهُ لا ينبغي ان نبحث عن النفس بواسطة المشاعر الخمس او بواسطة غيرها من الاشياء المادية ولكن يجب ان نبحث عن النفس من النفس فقط. وزاد على ذلك تبياناً بقولهِ اني موجود افكر واؤكد وارتاب واعرف واحزن وافرح الى غير ذلك من الشؤون التي هي في جميع احوالها مستقلة عن المادة ونواميسها وعن شرائع الجسم والاعضاء استقلالاً تاماً واني لست محتاجاً الى الجسم واعضائهِ حتى يرشدني الى معرفة نفسي المعبَّر عنها بانا ولست ايضاً بمحتاج الى الحس لانهُ ليس باستطاعتهِ الوصول اليها ولكن حاجتي الى معرفة نفسي محصورة كلها في الوجدان والانتباه واني اكثر ثقة بمعرفتي بوجود نفسي من ثقتي بمعرفتي بوجود جسمي

وعرَّف الارادة بانها قوة الاعتماد سيء الانسان على شيء مع اقتداره على اثبات ذلك الشيء او نكرانهِ وانها مبعث الضلال واصل الغرور لانها تتمم عملها من النكران والاثبات بمعزل عن هداية العقل وارشادهِ . واما الشهوات فافرز لها رسالة مخصوصة كتبها اواخر ايامهِ قال فيها ان الشهوات اصليَّة في الانسان وهي الاعجاب والحب والبغض والرغبة والفرح والحزن وانها في اصلها الطبيعي حسنة لاعيب فيها الاَّ ان الافراط فيها يصيرها سيئة ويستطاع تجنب الافراط بالتهذيب والتربية

ثم جعل الافكار في الانسان على ثلاثة انواع النوع الاول ما تسميهِ الافكار الساذجة وهي ما يأتي من الخارج كتصور الانسان للشمس والحرارة والصوت وغير ذلك من المحسوسات والنوع الثاني الافكار المتصرفة وهي التي تخترعها مخيلة الانسان فقد يتصور ما لا وجود لهُ في عالم الحس كتصور انسان برأس فيل وذنب ثعبان وهلم جرًّا والنوع الثالث الفكر الغريزي وهو الذي لا يأتي عن طريق الحس بل هو موجود في الانسان منذ كيانهِ على كيفيَّة واحدة في مطلق النوع انما ينمو ويزداد فيهِ قوة وتوقداً مع البحث والاختبار هٰذا ولا ريب ان تصور

وجود قوة سامية الهية موجود في كل عقل من عقول البشر على اختلاف احوالهم وتباين شؤونهم ولذلك كان تصور عقل الانسان لكائن ابدي عام بكل شيء قادر على كل شيء ثابت غير متغير مطلق غير متناهٍ لا يمكن ان يكون من تلقاء ذاته على ما في الادراك الانساني من النقص والتناهي اذًا لا بدَّ وان يكون هذا التصور فيه جاءهُ من كائن عظيم جامع لكل الكمالات وهذا الكائن الالهي غير المتناهي العالم بكل شيء القادر على كل شيء لا يمكن ان يكون الاَّ الله فالله اذًا موجود

واذا نظرنا الى ديكارت زعيم هذا المذهب رأيناهُ في غير الفلسفة نعني في العلوم الرياضية والطبيعية عالمًا محققًا ومكتشفًا بارعًا وان كان لهُ تحت مسائل كثيرة ابان فسادها من جاء بعدهُ من العلماء الاعلام كنيوتن وغيره على اننا نعرف انهُ اول من سعى في ان يجعل الهندسة اساسًا للعلوم الطبيعية واكتشف فيها عدة قضايا غزيرة الفائدة ومن اجل اكتشافاته واسماها تطبيق الجبر على الهندسة وهو واضع الفن المعروف بالهندسة التحليلية

غير ان مذهبهُ التي لاول عهدهِ مصاعب كثيرة من اهلها نهضة علماء اوربا من كل فج عليهِ وتكاتفهم على اصلائهِ حربًا دامية على انهُ ما طال الامر حتى كثر مريدوهُ ووفر عدد المتمذهبين بمذهبهِ فمنهم من اقتصر على تعاليمهِ بالحرف الواحد مثل دولافواج وكدرسليه ومنهم من استخرج من تعاليمهِ نتائج لا تنطبق عليها في شيء كالبرانش وسبينوزا وفردلاً ومنهم من اتخذ تعاليمهُ للدفاع عن الحقائق الدينية والادبية كبوسويه وفنلون ونيكول

هذا وقد كان للكارتيسيانية في السنين الاولى من القرن الثامن عشر شأن عظيم ومكان سام في كل البلاد الفرنسوية حتى لم يكن بين رجال العلم فيها من معارض لها او منتقد عليها ولم يمضِ على هذه الحالة الاَّ سنون قليلة حتى اخذت بالانحطاط والتقهقر شيئًا فشيئًا الى ان استهل منتصف القرن الثامن عشر فطفئ منارها وهبطت من سدرة نعمتها وصارت عند الناس كالفلسفة المدرسية منزلةً واعتبارًا والله وارث الارض ومن عليها

رخص الالومنيوم

لقد تمَّ ما قدَّرناهُ لهذا المعدن فصار الرطل منهُ في الولايات المتحدة الاميركية بثمانية غروش الى سبعة واذا لم يكن تام النقاوة يبع الرطل منهُ باقل من ستة غروش وهو يباع الآن قطعًا كبيرة ورقوقًا واسلاكًا وصحوقًا ويغني عن النحاس الاصفر في ما يستعمل لهُ